في ظلال القرآن

الجزء الأول

بقلم

سيد قطب

الطبعة الثانية

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

فى ظلال القرآن

عنوان لم أتكلفه ، فهو حقيقة عشتها فى الحياة . . فبين الحين والحين كنت أجد فى نفسى رغبة خفية فى أن أعيش فى ظل القرآن فترة ، أستروح فيها مالا أستروحه فى ظل سواه . فترة تصلنى بالسماء ، وتفتح لى فيها نوافذ مضيئة وكوًى مشعة ؛ وهى فى الوقت ذاته تثبِّت قدمىّ فى الأرض ، وتشعرنى أننى أقف على أرض صلبة ، لا تدنسها الأوحال ، ولا تزل فيها الأقدام .

وكانت تعن لى فى هـذه الجولات خواطر متناثرة : خواطر فى العقيدة ، وخواطر فى النفس ، وخواطر فى الحياة ، وخواطر فى الناس . . كنت أكتفى بأن أعيشها ولا أسجلها ، فقد كان حسبى أن أعيش هذه اللحظات فى تلك الظلال .

فلما أن صدَرت « المسلمون » وكان عَلَىّ أن أشترك فى تحريرها بمقال شهرى ؛ ووَدّ صاحبها الصديق أن لو كان هذا المقال فى موضوع مسلسل ، أو تحت عنوان دائم . . قفز إلى ذهنى هذا العنوان : « فى ظلال القرآن » ووددت لو سجلت هذه الخواطر التى تتوارد علىّ أحياناً وأنا أحيا فى ظل القرآن .

ذلك كان مبدأ القصة . .

ثم طمحت الرغبة ، وامتد الأفق إلى محاولة أخرى . . ماذا لو عشت فترات فى ظل هذا القرآن كله ، فسجلت كل ما يخالج نفسى ، وأنا أستروح هذا الجو العلوى الطليق ؟

إنه ليكون كسباً لا يعدله كسب لروحى أولاً ولذاتى . وربما شاركنى فيه الناس ، إذا أنا جمعته لهم فى كتاب . .

ووفق الله وسرت فى هذا الشوط خطوات ...

تلك هى قصة هذا الجزء الذى يصدر اليوم فى هذه الصورة ، وقصة الأجزاء التى تليه بإذن الله .

* * *

و بعد فقد يرى فريق من قراء هذه « الظلال » أنها لون من تفسير القرآن . وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادئ العامة للإسلام كما جاء بها القرآن . وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهى فى الحياة والمجتمع ، و بيان الحكمة فى ذلك الدستور . . أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطرى ، وأنا أحيا فى تلك الظلال .

كل ما حاولته ألا أغرق نفسى فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحى وتحجب روحى عن القرآن . وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآنى ذاته ، من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية . وما أحفل القرآن بهذه الإيحاءات .

كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسى من إحساس بالجمال الفنى العجيب فى هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق فى التعبير والتصوير .

ولقد كانت هذه إحدى أمانىّ منذ أن فرغت من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » قبل ثمانية أعوام ، وسجلت فيه ما بدا لى واضحاً يومذاك : أن التصوير هو القاعدة الواضحة فى التعبير القرآنى الجميل .. وكنت قد أدرت الكتاب كله على هذا المحور لشرح هذه القاعدة ، والتمثيل لها من القرآن .

كانت إحدى أمانيّ أن يوفقنى الله إلى عرض القرآن فى هذا الضوء .. ثم كمنت هذه الرغبة أو توارت ، حتى ظهرت مرة أخرى فى هذه الظلال .

* * *

ولقد سرت فى هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التى يربط بينها سبب خاص ، ويظللها ظل خاص ، فى صورة درس قرآنى . وقد تكون هذه الآيات « ربعاً » من القرآن أو أقل أو أكثر . لم أتقيد بهذا على وجه الدقة . إنما تقيدت فقط بأن يكون كل « جزء » من أجزاء القرآن الثلاثين فى جزء من هذه السلسلة ، التى ستصدر تباعاً كل شهرين بعون الله . من باب التنظيم الطباعى لهذه الحلقات .

أرجو أن يوفق الله إلى إكمال هذا العمل . وإلا فقد كسبت ما عشت من لحظات ، فى ظلال القرآن [1]

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢
فبراير سنة ١٩٥٣

سيد قطب

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى . ولم أجد ما يدعو إلى زيادة شىء عليها.

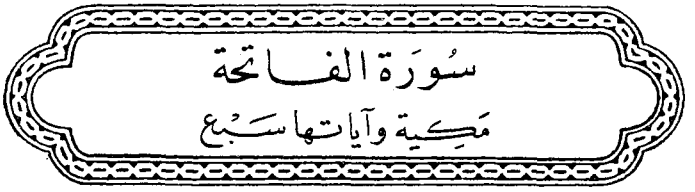

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع ، سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ؛ وإلى غير حد إذا هو رغب فى أن يقف بين يدى ربه متطوعاً لغير الفرائض والسنن .

إن فى هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات المشاعر والأحاسيس والتوجهات ، ما يشير إلى شىء من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة عند كل صلاة .

تبدأ السورة ـ بعد البسملة ـ بالتوجه إلى الله بالحمد ، حيث تتضمن الآية الإقرار بالربوبية المطلقة : « رب العالمين » . . وهى إحدى كليات العقيدة الإسلامية . والرب هو المربى والراعى والسيد . فالله لم يخلق الكون ثم يتركه هملا . إنما هو يربى ويرعى ويسود . والعوالم كلها فى رعايته وتحت سيادته . وعن طريق التربية الحكيمة التى يتعهد العالمين بها ، تنمو هذه العوالم وترقى ، كل فى اتجاهه ، وكل بحسب الناموس الأزلى الذى يحكمه ، وكل بحسب ماركز فى طبيعته وخلقته .

والربوبية المطلقة هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى عالم العقيدة . بين الاهتداء إلى الناموس الشامل لعلاقة الخلق بالخالق ؛ والحيرة والتشتت وتعدد الأرباب . . وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله خالق الكون ، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون فى الحياة ! ولقد يبدو هذا غريباً مضحكاً ، ولكنه كان وما يزال . ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن آلهتهم المتعددة : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فيعترفون بوحدانية الله وتعدد الأرباب . والكنيسة المسيحية إلى هذه اللحظة تعتقد بألوهية الله ، ولكنها تسمى عيسى رباً ، وتخلع عليه صفات الأرباب .

فإطلاق الربوبية لله فى هذه السورة ، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً . . هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة ، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ؛ تقر له بالسيادة المطلقة ؛ وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب !

« الرحمن الرحيم » . . وهذه كلية ثانية من كليات العقيدة الإسلامية . . الشعور بما فى تلك الربوبية من رحمة بالغة ، رحمة ثابتة متجددة ، عميقة الأصل ظاهرة الأثر . فالعلاقة إذن بين الرب والعباد هى علاقة رحمة ورعاية . والشعور بالرحمة السابغة فى تلك الربوبية المطلقة هو الصلة الداخلية بين العبد والرب . صلة القلب والشعور التى تقوم على الحب ، وتنبض بالحمد . فهى آصرة الاعتراف الخالص ، لا يشوبها خوف أو قهر ، ولا يعكر صفاءها رغب أو رهب . إنما هى الاستجابة الطبيعية للرحمة الندية .

إن الرب الإله فى الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب فى نزواتها وثوراتها ! ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة فى « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، لأنه خاف أن تصبح لهم القدرة على عمل كل ما يريدون ، كما جاء فى أسطورة برج بابل ، فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

والكلية الثالثة من كليات العقيدة الإسلامية تتضمنها الآية : « مالك يوم الدين » .. والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء فى الآخرة . ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل قبله. فالجزاء نتيجة والعمل سبب. فهو مالك الدنيا إذن ومالك الآخرة جميعاً .

وكثيراً ما اعتقد الناس بألوهية الله ، وخلقه للكون أول مرة ؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء ولا بملكيته المطلقة لله تعالى . والقرآن الكريم يحكى عن بعض هؤلاء يقول : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر غير عالم الأرض ، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض ؛ وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ومن ثم فهى مفرق الطريق بين العبودية للغرائز والنزوات ، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببنى الإنسان . مفرق الطريق بين الإنسانية فى حقيقتها العليا التى أرادها الله الرب لعباده ، وبين الصور المشوهة المنحرفة التى لم يقدر لها الكمال .

واختصاص الله بالتوجه إليه ، والاستعانة به : « إياك نعبد وإياك نستعين » . . هى الكلية الرابعة التى تنشئها الكليات الثلاثة الأولى ، فلا عبادة إلا لله ، ولا اتجاه لغير الله . وما من قوة فى الكون إلا قوته ، تملك لأحد شيئاً ، أو تستحق منه التفاتاً . فالله وحده يعبد ، والله وحده يستعان .

وهنا مفرق الطريق فى التحرر الإنسانى المطلق ، من القوى المخلوقة جميعاً . قوى الإنسان أو قوى الطبيعة . أى التحرر من عبودية النظم ، ومن عبودية الأوهام . وإذا كان الله وحده هو المعبود ، والله وحده هو المستعان . فقد تخلص الضمير البشرى من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ؛ وتخلص كذلك من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ، ومن القوى الطبيعية .

فأما القوى الإنسانية ـ بالقياس إلى المسلم ـ فهى نوعان : قوة مهتدية ، تؤمن بالله ، وتتبع سنة الله ؛ وهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون وإياها على الخير والصلاح . . وقوة ضالة ، لاتتصل بالله ، ولا تتبع سنته ؛ وهذه يجب عليه أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها .

ولا يهولنّ المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهى بضلالها عن مصدرها الأول ـ قوة الله ـ تفقد قوتها الحقيقية . تفقد الغذاء الدائم الذى يحفظ لها طاقتها . وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب ؛ فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ، ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة . على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع ، قوتها وحرارتها ونورها : و « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من النبع الأول للقوة وللعزة جميعاً .

وأما القوى الطبيعية ، فموقف المسلم منها هو موقف الصداقة والتعرف ، لاموقف العداء والتخوف . ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة كلتاهما صادرتان عن قوة الله وعن إرادة الله .

إن العقيدة الإسلامية توحى إلى المسلم أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً ؛ وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ، ويتعرف إليها ، ويتعاون وإياها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ، ولم يتعرف إليها ، ولم يهتد إلى الناموس الذى يسيرها .

ولقد درج الغربيون على التعبير بـ « قهر الطبيعة » . ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على الروح السائدة فى الضمير الغربى . إنه لا يتصور علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولا بين الإنسان والطبيعة ، إلا علاقة القاهر والمقهور ، المذل والذليل ، السيد والعبد . فهو إما أن يقهر الطبيعة أو تقهره الطبيعة ، كذلك إما أن يقهر أخاه الإنسان أو يقهره أخوه الإنسان !

فأما المسلم فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والعداء . علاقة التعارف والصداقة . وموقفه من الطبيعة هو موقفه من الإنسان ، وموقفه من الحيوان أيضاً . إنه يعتقد أن الله هو مصدر هذه القوى جميعاً . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وعلى الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها ، فالله هو الذى يسخر له هذه القوى ، وليس هو الذى يقهرها : « سخر لكم ما فى الأرض جميعاً » .. « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ، ولن تقوم بينه وبينها المخاوف والأحقاد .. إنه يؤمن بالله وحده ، ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه ، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ، فتبذل له معونتها وتكشف له عن كنوزها . . وما أروع قول الرسول الكريم ، وهو ينظر إلى جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ففى هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ود وألفة وتجاوب ، بينه وبين الطبيعة الصامتة فى أضخم مجالها .

* * *

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية فى العقيدة ؛ وتقرير الاتجاه إلى الله وحده للاستعانة . . يبدأ فى التطبيق العملى لها بالتوجه إلى الله بالدعاء ، على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها :

« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

اهدنا الصراط المستقيم .. وقفنا إلى معرفة الطريق . طريق الذين أكملت عليهم نعمتك فاهتدوا ، الذين لم تغضب عليهم فيضلوا .. ومن عرف الطريق إلى نواميس الله التى تحكم هذا الكون ، وتصرف هذه الحياة ؛ عاش معها فى سلام ووئام . ووصل إلى رضى الله بصالح العمل . وذلك هو النعيم الخالص والرضوان .

وهكذا تتساوق المعانى فى هذه السورة القصيرة وتتناسق الأغراض ؛ ويبدو التماسك فى نسجها والاتساق ؛ وتتجلى تلك الخصائص التى تكشف عن بعض أسرار اختيارها ، ليرددها المسلم سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ؛ أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام للصلاة .

سورة البقرة

مدنية إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجة الوداع

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم * ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ، وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ؛ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ؛ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا — وَلَنْ تَفْعَلُوا — فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا : هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ؛ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

فى عدد قليل من الكلمات والأسطر المعدودات فى أول السورة ، ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ؛ كل نمط منها نموذج حى لمجموعات ضخمة من البشر . نموذج أصيل عميق ، متكرر فى كل زمان ومكان . حتى ما تكاد البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة .

وفى تلك الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئاً وراء

هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع . . إنها صور : المتقين ، والكافرين ، والمنافقين .

فإذا انتهى من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس كافة إلى الصورة الأولى ، وناداهم كافة أن يفيئوا إليها . وتحدى الذين لايؤمنون ، وأنذرهم عذاباً مفزعاً مرهوباً ؛ وبشر المؤمنين وصور ما ينتظرهم من نعيم عظيم .

تلك مجمل الخطوط الرئيسية فى هذا الدرس الأول من سورة البقرة . فلنحاول أن نتناول هذا الإجمال بشىء من التفصيل .

* * *

تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة : « ألف . لام . ميم » بوصفها مبتدأ ، خبره : « ذلك الكتاب لاريب فيه » . . هذه الأحرف هى الكتاب ؛ فمن نوع هذه الأحرف ومن جنسها يتألف ذلك الكتاب ؛ ومن هذه الأصوات المألوفة يتكون . ولكنه مع هذا هوذلك الكتاب المعجز الذى يتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلا يستطيعون .. ذلك هو الإعجاز ؛ وذلك مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس . . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات . فإذا أخذ الإنسان هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو اسطوانة ، أو هيكل أوجهاز ، كائناً فى دقته ما يكون . . ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز ، الذى لايستطيعه بشر ، ولم يعرف سره أحد . . وهكذا القرآن . . حروف وكلمات ؛ يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً ؛ ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً . والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسم الخامد والروح النابض . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة .

ذلك الكتاب « هدى للمتقين » وهنا يأخذ فى رسم الصورة الأولى : صورة المتقين :

« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

والتقوى شعور فى الضمير ، وحالة فى الوجدان ، تنبثق منها صفات وأعمال ، وتتوحد معها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله فى سره وجهره ؛ وتشف معها الروح ، فتقل الحجب بينها وبين الناموس الكلى الذى يشمل عالمى الغيب والشهادة ، ويربط بين المعلوم والمجهول .

ومتى شفت الروح ، وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن ، ولمست ذلك الكلى ، الشامل للغائب والحاضر . فإن الإيمان بالغيب عندئذ هو الثمرة الطبيعية لإزاحة الحجب الساترة ،

واتصال الروح بالغيب المجهول . . الغيب الذى لاتدركه الحواس ، ولا يحيط به الفكر ، ولكن تطلع عليه البصيرة وتستشفه الروح ؛ ويدركه الإنسان بكيانه كله فى ومضة ، لأن برهانه مستقر فى كيان الإنسان كله ، متلبس بأعمق الأعماق فى الضمير .

ومتى استقر وجدان التقوى فى الضمير ، اتحد فيه الإيمان بالغيب بإقامة الصلاة عبادة لله ؛ وبالإنفاق شكراً على نعمته وبراً بخلقه وتضامناً بين عباده ؛ واتحد فيه كذلك بالإيمان بالرسالة الإلهية كلها ، فى جميع أطوارها وحلقاتها ؛ ثم اتحد فيه بالإيمان بالآخرة فهى غيب من الغيب : « وبالآخرة هم يوقنون ».

هذه الوحدة بين الظاهر والباطن ، بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، بين الإيمان بالرسالة الحاضرة والرسالات الماضية ، بين الدنيا والآخرة ، بين العبادة والسلوك . . هذه الوحدة الشعورية الكبرى ، التى تجمعها كلها كلمة التقوى . . هى سمة الإسلام الأولى . السمة التى ارتسمت من خلال اللمسات السريعة ، وانتفضت صورة حية . صورة المتقين . إحدى الصور الثلاث التى ترتسم فى تلك الكلمات القلائل والأسطر المعدودات .

فأما الصورة الثانية فتلك صورة الكافرين :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ،ولهم عذاب عظيم .

فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين . فالإنذار بالكتاب وعدم الإنذار سواء بالنسبة إلى الكافرين . إن المنافذ المفتحة فى أرواح المتقين ، والوشائج التى تربطهم بالوجود كله وخالق الوجود .. هذه المنافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا. وهذه الوشائج الموصولة كلها هناك ،مقطوعة كلهاهنا : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» ختم عليها فلا إلهام ولاشعور ، « وعلى أبصارهم غشاوة » فلا نور ولا بصيص من نور . .

إنها صورة صلدة مظلمة جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار .

ثم ننتقل إلى الصورة الثالثة ، أو النموذج الثالث ، فماذا نرى ؟

إنها ليست فى شفافية الصورة الأولى وسماحتها؛ وليست فى عتامة الصورة الثانية وصفاقتها ؛ ولكنها تتلوى فى الحس ، وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين . . إنها صورة المنافقين :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا؛ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »

إنهم يظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على الخداع . . ولكن يا للسخرية التى تنصب عليهم قبل أن تكمل الآية وقبل أن تكتمل الصورة . . إنهم من الغفلة بحيث إنهم لا يخدعون إلا أنفسهم « وما يشعرون » فالله يخداعهم عليم ، والمؤمنون لا يخدعهم أحد ، وهم بالله موصولون .

ولكن لماذا يحاول المنافقون هذه المحاولة ، ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟ . . « فى قلوبهم مرض » فى طبيعتهم آفة ، فى فطرتهم علة .. وهذا ما يحيدبهم عن الطريق المستقيم .. «فزادهم الله مرضاً » فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد . سنة لا تتخلف . سنة الله فى الأشياء والأوضاع والشعور والسلوك . فهم صائرون إذن إلى مصير معلوم : « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، إنما يضيفون إليهما السفه والادعاء: « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض » لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل تجاوزوه إلى التبجح والادعاء : « قالوا : إنما نحن مصلحون » هكذا بلا بينة ولا دليل . « ألا إنهم هم المفسدون » ولكنهم من الغفلة « لا يشعرون » .

«وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس . قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء؟ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس . الناس المستقيمون على الصراط ، الذين يستحقون أن يقال لهم « الناس » بما فيهم من مقوّمات الإنسانية العليا ، وبما فيهم من استعداد للمعرفة والاستجابة . . إذا قيل لهم : تعالوا إلى مألوف الناس ومعروفهم لم يكتفوا بالاعتذار عن مخالفتهم للناس ، وانحرافهم عن الطريق . . ولكن توقحوا وسفهوا، و «قالوا:أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » عندئذ يجيئهم الرد حاسماً جازماً : « ألا إنهم هم السفهاء» . .«ولكن لا يعلمون» ومتى علم السفيه أنه سفيه ؟ ومتى استشعر البذىء أنه بذىء ؟

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

فهم لا يقفون عنـد حد الـكذب والخـداع والسفه والادعاء . إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا » ضعفاً عن المواجهة أو خداعاً ومكراً. ومايتتج المرض والالتواء إلا الضعف واللؤم سواء . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، وهو ضعف وخسة ؛ فالقوى ليس لئيماً ولا خسيساً ، ولا خادعاً ولامنافقاً ؛ والقوى ليس مستهزئاً بالناس، ولا غمازاً لمازاً فى الخفاء . وما أضعف هؤلاء الذين يقولون : إنهم مستهزئون . . « الله يستهزىء بهم » وما أبأس من يستهزىء به جبار السماوات والأرض وما أشقاه . وإن الخيال ليمتد إلى منظر مفزع رهيب ، وإلى مصير تقشعر من هوله القلوب ، وهو يقرأ: «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فيخبطون على غير هدى فى طريق لا يعرفون غايته ؛ واليـد الجبارة تتلقفهم فى نهايته ، كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ غافلة عن المقبض المـكين !

«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

أولئك كانوا يملـكون الهـدى لو أرادوا ؛ ولـكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى » كأغفل المتجرين « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولعلنا نلمح أن الحيز الذى استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة قد جاء أفسح من الحيز الذى استغرقه رسم الصورة الأولى أو الثانية .

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعانى . . الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة فى اتجاهها ؛ والصورة الثانية صورة النفس المعتمة المستقيمة فى اتجاهها . أما الصورة الثالثة فهى صورة النفس الملتوية المريضة المقلقلة . وهى فى حاجة إلى مزيد من اللمسات ومزيد من الخطوط كيما تظهر وتبين .

وفى سبيل هذا الغرض يمضى السياق ، يضرب حولها الأمثال التى تكشف عن طبيعتها ، ونظرتها إلى الحياة والأشياء ، وعلاقتها بالحياة والأحياء :

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية ، وقلوبهم عن الإدراك ، كما يصنع الـكافرون . ولـكنهم استحبوا الضلالة على الهـدى بعـد ما استوضحوا الأمر وتبينوه ؛ وبعد ما اختاروا لأنفسهم فأساءوا الاختيار ؛وتركوا الذى هو خير

فكان مصيرهم البوار . . لقد استوقدوا النار ، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا به وهم طالبوها. عندئذ « ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون ، لتلقى الأصداء والأضواء ،والانتفاع بالهدى والموعظة، فقد عطلوا هم آذانهم فهم « صم» ، وعطلوا ألسنتهم فهم «بكم» ، وعطلوا عيونهم فهم «عمى» . فلا رجعة لهم إلى الحق ولا مآب .

« أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شىء قدير . »

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب . فيه تيه وضلال،وفيهول ورعب، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هاطل غزير ، « فيه ظلمات ورعد وبرق » . . « كلما أضاء لهم مشوا فيه » .. « وإذا أظلم عليهم قاموا »ووقفوا حائرين لايدرون أيان يذهبون . وهم مفزعون : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » . . « والله محيط بالكافرين » .

إن الحركة التى تغمر المشهد كله ، من الصيب الهاطل ، إلى الظلمات والبرق والرعد ، إلى الحائرين المفزعين فيه ، إلى الخطوات المروعة الوجلة ، التى تقف فجأة عند ما يخيم الظلام . . إن هذه الحركة فى المشهد لترسم الحركة التى فى الضمائر . حركة التيه والاضطراب الذى يعيشون فيه ، بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم إلى الشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام . . . إنه التصوير الفنى المعجز يجسم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس ...

* * *

والآن بعد استعراض الصور الثلاث ، نعود إلى الصورة الأولى . صورة المتقين التى كتب الله لأهلها الفلاح : « أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون » نعود إليها لنتملى خصائصها ومقوّماتها ، ولنرى مدى أصالتها فى الحياة وكرامتها عليها .

إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية التى تجمع فى نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة .. هذه الوحدة هى ناموس

الخلق وناموس الوجود . فالقيمة العليا إذن لهذه السمة هى اهتداء المتقين إلى الناموس الخالد ، واصطلاح نفوسهم ومشاعرهم عليه ، واستمدادهم بطبيعتهم منه . فهم فى الحياة كالنغمة المتناسقة فى اللحن الأصيل .

فإذا نحن أخذنا فى تفصيل هذه السمة الأولى إلى مفرداتها التى تتألف منها ، انكشفت لنا هذه المفردات الجزئية كذلك عن قيم أساسية فى حياة البشرية جميعاً ..

« الذين يؤمنون بالغيب » . . ماقيمة هذه السمة فى الحياة وما جدواها ؟ قيمتها هى الاتصال المباشر بين الروح البشرية والوحدة الكونية ، فلا تقوم حواجز الحس دون هذا الاتصال الوثيق . عندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق ، فيما لم تخلق له ، ولم توهب القدرة عليه ، ولا يجدى أن تنفق فيه . إن الطاقة الفكرية موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة ، تنظر فيها وتتعمقها وتتقصاها ؛ وتعمل وتنتج وتنمى هذه الحياة وتجملها ، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التى تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود . . فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، فهى محاولة فاشلة أولا ، ومحاولة عابثة أخيراً . فاشلة لأنها فوق طاقة العقل المحدودة ؛ وعابثة لأنها تبدد تلك الطاقة التى لم تخلق لمثل هذا المجال ، ولا تملك له أداة ، ولا تعرف إليه سبيلا . ومتى سلم العقل البشرى بالبديهية العقلية الأولى ، وهى أنه جزئى محدود بالزمان والمكان ، مقيد بالحس والتجربة ، وبالتصور والقياس الناشئين من الحس والتجربة . متى سلم بهذه البديهية الأولى لزمه ـ احتراماً لمنطقه ذاته ـ أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل ، وأن إحاطته بالكل متعذرة ، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل المحكوم بالحس والتجربة . وقيمة هذا التسليم هى أن يعمل العقل فى الحقل الذى يدرك معالمه وينتج فيه ؛ وألا يغتر بنفسه فيجعل من ذاته إلهاً ، ومن تصوراته دينا ، ومن مقولاته شريعة . لأنه عرضة للخطأ فى الحس ، والضلال فى التجربة ، والتأثر بشتى المؤثرات .

« ويقيمون الصلاة » .. ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها هى التوجه إلى الخالق دون المخلوقين ، التوجه إلى القوة المطلقة بغير حدود . قيمتها الاعتزاز بالله على العبيد . قيمتها الاتصال بالخالق القادر فترات على مدار الليل والنهار ، حيث يستشعر الفرد الفانى الزائل ، أنه موصول السبب بواجب الوجود واجب الخلود . فإذا لحياته غاية ، وإذا لضعفه سند ، وإذا لحدوده امتداد ، وإذا هو على اتصال بعالم الخلود .

« ومما رزقناهم ينفقون » .. ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها الاعتراف بنعمة الرزق ،